

## المضمون السياسي في الرواية التونسية

وقد استمر تطور الرواية وارتباطها بالاحداث السياسية يتنامى بشنامي الصدمات الاجتماعية والسياسية ، وتراكم الازمات التي مر بها العالم العربي اثناء مواجهته الثارية العنيفة مع الاستعمار الانكليزي والفرنسي والاطالي والصهيوني . وكذلك اثناء طرح مشكل التفاوت الطبقي ، والصراع الاجتماعي ، والانحراف السياسي .

كان الروائيون العرب على اختلاف نزعاتهم واساليبهم ، وعبر السنوات المختلفة دعاة تطلع وضوح ، عبروا بأكثر ما يمكن من الصدق والواقعية عن ايجابيتهم من الاحداث . وحافظوا على موافهم في اتجاه التقدم بما في ذلك الروائيون الذين شغفوا بتناول قضايا ومشاكل الطبقة البورجوازية اذ كانوا في اكثر الاحوال قد عملوا على فضح نفاضاتها ، ونفسخها . وعدا نفر قليل من كيناب الرواية الذين انخلوا من الكتابة حرفة الهاء تسليية المراهقين والمراهقات ، وابتزاز مشاعرهم ، وحبك المفامرات والعواطف الكاذبة ، فان بقية الروائيين العرب نجدهم يطرحون اعماق المسكلات الثورية والانسانية ، ولا يقلون في ذلك مستوى فنيا او فكريا - رغم حداثة التجربة - عن بعض روائيي الطبيعة في العالم الثالث .

ومن المؤمل ان تبلغ الرواية العربية منزلة لائقه بشرف ان يشار كتابها على الاستمرار في الخلق والابداع ، وان يخرجوا بهذه المحاولات من اطار تسجيل الاحداث الماضية والوفائع التاريخية الى اطار معايشة القضايا المتجددة بين اللحظة والاخرى .

ورغم ان عددا من نقاد الرواية لا يوافقون على استحالة الروائي الى صحفي ، او مراسل حربي او كاتب مذكرات يومية الا انهم يابون عليه ان يدع الاحداث تمر تحت ذهنه ليعيد تركيبها بعد انقضاء فاعليتها واستحالتها الى ركام من الذكريات .

ان المضمون السياسي للرواية العربية يرتبط لحد الان بتاريخ الاحداث البعيدة التي تعاقبت على الافطار العربية ، ودور الروائي العربي في ذلك لم ينعقد في الغالب اعادة تركيب هذه الاحداث من خلال التصورات والتخيل . وهناك محاولات معدودة اهتمت بتقصي الحافز واستلهامه ، ولكن كتابتها لم يتمكنوا من تجريد انفسهم منها ، مما جعل هذه الرواية تبدو اقرب الى التعبير عن الواقع الذاتي للكاتب ، منها الى التعبير عن الواقع السياسي والاجتماعي لمرحلة من المراحل .

هذا اذا لم يعد المؤلف الى الارتداد بمضمون روايته الى الماضي ، قصد طمس معالم الحاضر بسبب التهيب والخوف من التبعات والاشكالات السياسية .

يرتبط مضمون الرواية العربية المعاصرة الى حد كبير بوفانسح الاحداث والملايسات الاجتماعية والسياسية ، والانفصالية التي مرت بها الافطار العربية ، منذ مطلع القرن وحتى الآن .

فاذا كان الشعر العربي قد ساهم في انهاب المشاعر ، والدعوة الى النغير ، ونزع آلى التحريض والايقظ ووجل في الساحات ، واذا كانت الفصة العربية قد رصدت حركة التطور الانساني في هذه الرفعة الجغرافية على سعتها ، وسجلت الخطوات البارزة التي قطعها المجتمع العربي في رحلتي العذاب والرخاء - فبان آرواية التي تعد احداث انماط الكتابة العربية لم تتوقف عند حد التحريض ، ورسسد التحولات فحسب ، وانما نجدتها تؤرخ تنضال اتجمهير في هذه الافطار ، وتفتح صفحاتها لتكتب التاريخ الذي لم يتجرا المؤرخون على كتابته حذر التعرض لسخط السلطات ، ولتدون في سعة وتمثل التجربة الابداعية السخية للطبقات الكادحة في نسق يقالب تواتر الاحداث وتعاقبها .

ان الروائي العربي لمب لحد الان دورا مزدوجا ، دور المؤرخ الذي يكرس معظم ابداعه لظهار مواهب الفئات الواسعة ، ودور الفنان الذي يفسد بسعيه تأكيد الوفوف الى جانب الجماعات المكافحة القاضبة ، والمقضوب عليها .

ومن هذه الزاوية فان الرواية العربية ، ربما اصبحت فسي المدى الغريب والبعيد مصدرا هاما من مصادر التاريخ الاجتماعي لا غنى عنه لمعظم الباحثين في مختلف تفرعات الفكر ، بما في ذلك المؤرخون المتخصصون في دراسة التاريخ ذاته . ولربما كانت الرواية ايضا المصدر الوحيد الذي يصح الامتداد به مستقبلا في مثل هذه الدراسات لانصراف الرواية في معظم احوالها الى ابراز الواقع المعلوم ، المتجاهل للفئات الهامشية التي ترتبط بالاحداث اليومية ولا تنصدر نشرات الاخبار في مطلع كل ساعة زمنية ، ولا يعبا بها المؤرخون للاحداث .

وانه لمن الصدف الرائعة ان تلج الرواية العربية تاريخها من خلال المراحل القصيبة التي عاشتها الامة العربية فيما مضى من ثلثي هذا القرن . فصارت فمرات النضال ، وراكبت الانتقالات الفريدة التي خرجت بهذه الرفعة العربية ذات الامتداد الباهر من طور الاستعمار الى طور الحرية . . ومن طور حكم السلالات المستبدة الى طور الطبقة الفاعلة ، اليقظة المؤثرة في توجيه الاحداث ومن طور الطبقة والامية الى وضع الشعور بالذات والكرامة ، والقدرة على التمرد والعصيان والشورة .

على الخروج من دائرة الماضي ، والتفني بالثورة والامجاد والبطولات التي صنعها الشهداء والراجلون الى الكتابة عن الحاضر والواضع اليومي ، والانغماس في حياة الصراع الدائب المستجد ، ومواجهة الحياة بصرامة . وربما كان المقصود منها ايضا ذلك خط الترجمة لدى الكاتب العربي الذي يعيش في قلبه حنين ابدى للحلم ، واعتزاز مفرط بكل ما خلف وراءه من امس .

تعتبر رواية ( ارجوان ) لمحمد المختار بن جنات في مقدمة الاعمال الروائية التي ادرخت لمرحلة المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين ، وقد بذلك كاتبها جهدا خارقا من اجل ان تكون موسوعة روائية ستوعب عامين من النضال : هما عاما اندلاع الثورة الوطنية من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٤٥ اي بداية من الكفاح المسلح الى الاستقلال الداخلي الذي سبق الاستقلال التام في سنة ١٩٥٦ .

وتقع رواية ( ارجوان ) في سبعة اجزاء ، وفي نحو اكثر من الف صفحة مطبوعة وهي بذلك تتجاوز في حجمها كل ما صدر من روايات عربية لحد الآن بما في ذلك ثلاثية نجيب محفوظ . وقد ظهر من هذه الرواية - النهر - كما يقول الاجانب او هذه الموسوعة الروائية - ان صحت التعبير - ثلاثة اجزاء فقط ، ثم عطل الناشر صدور بقية الاجزاء لخلاف شخصي بينه وبين الكاتب . ورغم اني تمكنت من قراءة مخطوطة هذه الرواية اكثر من مرة فان الموضوعية تلزمني بان لا اتجاوز معالجة مضمون الاجزاء الثلاثة المتوفرة لدى القراء وهي اجزاء تقدم في مجموعها صورة متكاملة لكل من يطلع عليها ، ولكنها لا تغطي سوى صور منقوصة لمن تسنى له ان يطلع على ما لم ينشر من هذه الرواية .

وقد عزز المختار بن جنات تجربته الروائية في الاتجاه الى الادب التسجيلي الوطني برواية ثانية صدرت سنة ١٩٧٤ بعنوان ( نوافذ الزمن ) تتروي قصة ما حدث في معركة بنزرت الشهيرة في صائفة ١٩٦٢ . ويبدو ان اطلع على كلتي الروايتين ان المؤلف استطاع ان يقتنعنا بتطور تجربته الروائية من خلال التوازن الفني الدقيق الذي اقام عليه معمار روايته ( نوافذ الوجود ) التي اعددها شخصيا رواية الزواتيين التونسيين من الناحية الفنية على الاقل ومن المؤلف ان تلقى بعض المحاولات الروائية الفاشلة من العناية والرواج بسبب غياب النقد الواعي النزيه ما لم تلقه اعمال هذا الكاتب الذي وجد في نفسه العجزة بان يكتب عن الاحياء ، ويبرز اسماءهم الصريحة ، ويعلم عن ادوارهم في الثورة التونسية . ومهما قيل في هذا اللون من الكتابة وما ينطوي عليه من الاحكام والآراء التي تهيب المؤرخون عن البت فيها فان المؤلف لم يكتب تاريخ الثورة التونسية ، ولكنه حاول ان يفسح هذه الثورة في اطارها الاجتماعي ، ويبرز من خلالها ما قامت به مختلف الفئات الاجتماعية ، خصوصا وقد لعب دور البطولة فيها الابناء المغمورون من هذا الشعب دون ان يفرد في روايته اي زعيم او قائد بما يتمنى لنفسه من الهالة ، عدا ما كانت الاخبار العامة تفرض تداوله بين الناس في مختلف الاوساط عن هؤلاء القادة الذين سجنوا ، او هذا الحزب الذي يقوم بالتحريض على الثورة ، او تلك المنظمة النقابية التي شاركت بفعالية في دفع العمال وترشيدهم الى وعي منزلتهم من خلال شخصية ( قدور القادري ) مثلا ، وعلى خلاف هاتين الروايتين فان معظم ما كتب من الروايات الاخرى ، عن الثورة ومضمونها السياسي والاجتماعي ، كان يفتقر الى العمق احيانا ، والى الفن والابداع في اكثر الاحيان ، وهو في جملته مجرد استعراض للوضع البائس الذي كانت تعيشه تونس في العهد الاستعماري ، ومجرد تصوير لاحداث لها اساس في الواقع ، عرضت بأسلوب تقلب عليه التفريرية ، وتجمع فيه الروح الوطنية العالية .

ان السمة البارزة للرواية النضالية في تونس ، هي ان القارئ يستطيع ان يطلع من خلالها تاريخ الثورة التونسية الذي لم يكتب بعد . وعلى خلاف ما يظهر به كتاب التاريخ من خشية واحجام عن ابداء

وفي هذا المنحي تتشابه معظم الاعمال الروائية التي صدرت في المغرب او المشرق على السواء ، ذلك التشابه الذي يدل بوضوح على طبيعة المشاكل التي تعاني منها هذه الاقطار ، وتماثل الاحداث فيها ، وتوعية الانظمة السياسية في جميعها . كما يدل هذا التشابه على وحدة التجربة الابداعية بين هذه الاقطار التي لها خصائص متقاربة ، وان تفرقت كل منها بما يميزها من سمات قطرية محلية تلميحها الاوضاع الجغرافية والبشرية والاقتصادية ، وكذلك الظروف السياسية الوطنية .

يطرح المضمون السياسي للرواية العربية قضيتين جوهريتين : قضية الكيان والهوية في مرحلة الصدام مع الاستعمار ، وقضية الصراع الطبقي في مرحلة البناء الوطني والقومي .

وحول هاتين القضيتين تحوم معظم القضايا الطفيلية الاخرى التي تشعب عنها .

وعند البحث في القضية الاولى ، نصادف في جل ما صدر من روايات على امتداد الحروب التي خاضتها الامة العربية آثارا لهذه الحروب وصورا من المقاومة الشعبية ضد الانكليز في روايات نجيب محفوظ من مصر ، وغائب طعمة فرمان من العراق ، وضدالفرنسيين والابيطاليين والصهاينة في كتابات محمد ديب وكاتب يمين ووطار من الجزائر وحنا مينا من سوريا وعبدالكريم غلاب من المغرب وغسان كنفاتي من فلسطين ومحمد المختار بن جنات من تونس وغيرهم .

اما قضية الصراع الطبقي ، والمناداة بالعدالة الاجتماعيةوالثورة ضد البورجوازية المحلية التي ورثت الامتيازات التي كانت للاستعمار تحت دعاوي مختلفة فانها تكاد تحل الجزء الاوفى من اهتمامات الرواية العربية ، بالرغم من ان معظمها لا يصدر عن نظرة ايدولوجية لقضية الصراع الطبقي بقدر ما يعبر عن المساندة ، والتعاطف مع كفاح الاغلبية الاجتماعية . والرواية التونسية على حدائق تجربتها نجدتها منذ البداية ترتبط بالاحداث السياسية فتتجدد لمقاومة المستعمر او بالاحرى لابرار الكفاح الجماعي الذي خاضه التونسيون ضد الفرنسيين في الخمسينات ، وتتوافر على تسجيل هذا الكفاح ، وعلى الاشادة بالبطولات الظاهرة التي بذلها المقاومون في المدن والجزائر ، من اجل الدفاع عن الكيان الوطني وتأكيد الهوية القومية لهذا الشعب وهو ما تبرزه روايات « ومن الضحايا » ، « حليلة » و « التسوت المر » للروسى الطوي و « الدقلة في عراجينها » للبشير خريف ، و « ارجوان » و ( نوافذ الزمن ) للمختار بن جنات و « بودودة مات » لرشاد الحزاوي و « يوم من ايام زمرا » لمحمد صالح الجابري ، و « عندما ينهال المطر » لمبدالرحمن عمار و « في بيت العنكبوت » لمحمد الهادي بن صالح . كما تبرز قصة الارض وكفاح الانسان العادل من اجل القوت وتكافؤ الفرص في معظم الاعمال الروائية الاخرى كروايات ( المنرج ) لمصطفى الفارسي ( ونصبي من الافق ) لعبد القادر بن الشيخ و ( سوق الكلاب ) و ( هذه الشجرة ) لمحيي الدين بن خليفة و ( البحر ينشر الواحه ) لمحمد صالح الجابري ، و ( عواصف الخريف ) لمبدالرحمن عبيد .

ومن خلال هذه المحاولات الروائية يمكن التعرف على تاريخ الشعب التونسي ، ومدى ما قدم من تضحيات جسيمة في سبيل الكيان والهوية ، وفي سبيل الارض ، ودعم حق الاكثرية في العدالة .

واذا كان بعض النقاد يضع جانبا من الاحترازا تجاه ما يكتب عن الثورات الوطنية التي ما يزال قادتها على قيد الحياة ، وربما كانوا في قمة السلطة احيانا فان هذه الاحترازا تبدو في الواقع ضريا من الاتهام المسبق لقدرة الروائي على تجاوز المبالغات الخاصة بالاشخاص ، والنظر اليهم في اطار الكفاح الجماعي .

على ان المقصود احيانا بهذه الاحترازا المطروحة هو حول الكاتب

على اعمدة الكهرباء وعلى فترات ميازيب السطوح ، وعبر السكون النسبي المخيم على العاصمة كان يرتفع من حين لآخر صليل السيارات الحربية .. يرتفع ثم يتلاشى مع النوات الشوارع المدفونة في احشاء المدينة ، واحس بالاعياء يكتسح اعصابه ، فاستلقى في انهياء على ارضية السطح المصدوع .

والتمس بانبطاحه وضما مريحا ووسد راسه فوق ذراعه ، واطبق اجفانه . وامحت الصور والاحاسيس والخلجات ، بينما تلقف انفه انفاسا مجعدة احوالها الى شخير مموج . ص (١٣٦) .

ومن ثم يتضم فدور الى الثورة المسلحة التي تتلادم مع مواهبه في الاندفاع وتحمل المشاق والرغبة في البذل والافتناع بان العنف المسلح هو الاسلوب الكفء لمواجهة العنف الاستعماري .

ان ثلاثتهم ( جلال - صلاح - قدور ) يمثلون جيلا جديدا اسنقظ ليجد نفسه في خصم المواجهة مع العدو .. في خصم حرب هم مدعوون لتحقيق الانتصار فيها ، مهما كانت الصعاب والاسباب ، لانها حرب الكيان والهوية . وينظرة اوسع فثلاثتهم بالرغم من انتمائهم الى شجرة عائلية واحدة انما يمثلون الطبقات الاجتماعية المتباينة التي تختلف مشاربها واطرافها وغاياتها غير انه ولا لقاء بينهما البتة الا في هذه الجبهة .. جبهة الدفاع عن الارض والكيان .

وعلى سطح هذه الرواية تبرز عشرات الشخصيات الهامشية والسلبية ، التي تمثل اصنافا من الانهازيين ، والبروفراطيين والعلماء من امثال حامد الفويدري ، عم جلال ووالد صلاح الذي يرى ان مصالحه مرتبطة بالدفاع عن اللغة الفرنسية ، ويصوغ مفولات على نحو يوهم بان كل تفكير في الاستغناء عن اللغة الفرنسية انما هو انحمار وطني وعالمي ، لانها هي مفتاح صلة الوطن بالعالم الارحب . وهو يجادل ابنه صلاح من هذا المنطلق ، كي يردع جموحه الوطني ، ويوهن من عزائمه ، وينال من كبريائه القومي واعزازاه بلغته .

- انك تتعامل على لغتنا يا ابي .

- انا لا اتعامل عليها ، وانما افول الواقع ، والا فل لي : هل تستطيع ان تثبت لي ان الطبقة التي تعلمت في جامع الزيتونة تستطيع ان تسيير الادارات التي هي الان بيد الفرنسيين ؟ .

احتقن وجه صلاح واحس كان والده يهينه شخصا ، وقال في سخط :

- واذن فنحن لسنا في حاجة الى الاستقلال عن فرنسا ، ما دمنا عاجزين عن ادارة بلادنا واستخدام لغتنا ومؤهلاتنا الفنية ؟

قال حامد :

- هو الواقع .. فيمما يخص عجزنا اللغوي فاننا - كتونسيين - مجردون من اللغة نفسها ، فاللغة العربية التي تقول ليست لغة خاصة بنا اذ هي شائعة بين عدة اقطار فتحها العرب ، ولم يعد لاولئك العرب اي كيان سياسي ، او جغرافي اذ دخلوا حيز التراث التاريخي كالفراعنة تماما . وقد تركوا اللغة العربية كما ترك الفراعنة الاهرام . واذن فلا سبيل لتمسكنا بلغه نراها لا تخصصنا اليميا .

هتف صلاح : عجا !

حول حامد راسه وقال :

- هذا هو الحق مع كامل الاسف وسيجابهنا باخظاره اذا تحقق هذا الاستقلال ، وسندرك ان لا جدوى من التعريب اداريا وتقنيا ، ولا بد من ان نتمسك باللغة الفرنسية . وهذا التمسك سيوفعنا في عجز كما قلت لك ، لاننا لا نستطيع ان نجاري الفرنسيين فسي اكتساب لغتهم ( ٦٠ خيوط الشمس )

وعلى شاكلة حامد نجد اسماعيل الجابر مدير ديوان وزير العدل الذي يكرس كل مواهبه الادارية القذة لتاهيل ابنه من الناحية

وجهات نظرهم ومواقفهم من الثورة المسلحة ، والثورة السياسية وما حف بهما من ملابسات ، فان الروائيين وجدوا في انفسهم بعض الجراة ليكتبوا هذا التاريخ كتابه ادبية ، ولينصقوا الفئات المعمرة والهامة التي قامت بواجبها الوطني ، وكانت لها اغايات تتجاوز مجرد المصالح الشخصية ، وتهدف اساسا الى ابراز الهوية الوطنية والقومية اذاه ما كان يقصد اليه الاستعمار من طمس لهذه الهوية . فجلال القادري وصلاح وقدور ابنا عمه على تفاوت المستويات الثقافية والبيئية ، ورغم ما يفرق بينهم من الاختلاف في المستوى العائلي والفطري نجدهم جميعا امام القضية الوطنية على نفس البدا والغاية .

جلال الشاب الذكي المثقف الواعي نكل تحرك استعماري ، والذي ما يزال طالبا بالزيتونة ، وكذلك صلاح ابن عمه الذي يقل عنه ذكاء ووعيا ، وثالثهما ابن عمهما العامل البسيط الذي يعول اخته ( فضيلة ) ووالدته ( صالحة ) ثلاثتهم يؤلفون طليعة الفئات الاجتماعية التي توحدت جهودها لاجراخ المستعمر وعلان الحرب عليه ، كل بوسيلته الخاصة ، جلال بعقله المدير المنظم للمظاهرات والاجتماعات وبطبيعته المميزة بالدهاء والخجل والبرودة .

« علت الهاتفات فطقت الهمسات »

رشعر انه استمع الى ما فيه الكفاية . وادرك بمرارة انه لم يكن مخطنا حين ظن ان الهمسات ذات دلالة ملثثة تثير الريب والشك : « تلك معادن الثورة : الذهب ، والحجارة . لكن هل نحن في حاجة الى الصفداع ، والحيات السامة ، والجرائم الفناكة .. لا بد من صهر المصان ..

.. وخطرت له فكرة . وقلبها في ذهنه قليلا ، ثم نهض بهدوء واخرق صفوف الجالسين حتى اقترب من المحراب ، وأشار الى احد المنصرمين ، واقتحم الجناح الخلفي لبيت الصلاة . وتساءل في قلق « افهم الرجل ما تعنيه ؟ وهل انتبه الشيخ وجليسه الى اشارته ؟ »

واسرع يطمئن نفسه الى انه اجتهد كثيرا في اخفاء اشارته .. فلا خوف اذن من الامر ما دام قد فضل الاعداء على تنفيذ الفكرة .. وماذا يخشى ؟ هل الوفوع في يد المفتش ، ام الاستهانة بفكرته ونبذها ؟ سيرها مجرد هواجس لا سبيل الى اعتبارها .. واقع الحال يفرض دائما وجود الخونة .. والمظاهرة سننطلق ، وليعطها المفتشون مهما كثروا ، واندسوا بين الصفوف .. هذا فقد اوقمتك الاوهام والمخاوف في الشطط .. ثم ما هو واقترب الرفيق منه ، ففرس نظرتة في مينيته :

- اريد ان افانحك بسر خطير ص ( ٩٥ ) .

وصلاح باندفاعاته الوطنية التلقائية ، وبوقوعه تحت تأثير جلال ابن عمه الذي استطاع ان يطلقه من فيد عائلته الموالية للادارة او البيروقراطية ، ويزج به جنديا في معركة الشعب .

وكذلك فدور العامل في حظائر البناء تحت امرة ضابط فرنسي نجده هو الاخر يطلق الخمرة واللهو واصدقائه في العمل . وينطلق ليلا من فوق سطح بيتهم الكبير من نهسج حمام الرميبي « بسباب سويقة » متحديا حظر التجول المفروض ، للبحث عن جلال الذي تنهات الاخبار بانه اعتقل مع الطلبة المعتقلين الذين نظموا مظاهرات الاحتجاج على الوجود الاستعماري وعلى التسف والقهر .

وعينا حاولت « صالحة » اثناء ابنها قدور « عن مقامرة وسحب السلم من تحت قدميه ، ولكنه كان قد غاب وترك السلم وراءه .

« وباعد بين رجليه ، وهو واقف يستشرف براسه المثل معالم المدينة ، وعصر المساء بكأبته تلك النشوة التي اخذت تلوحي راسه .. كانت الشمس تحتضر وراء البنايات الشاهقة ، وتنتشر اشعتها في اشلاء السحب الملونة بشحوب الاصفرار القاتم . وزحف اليه من الغروب تهاؤب اسود ، اخذت تسبح فيه اجنحة طيور ظلت تتخبط لتقع

السياسية لاحتلال منصب هام في الدولة الجديدة في إطار السلك الدبلوماسي ، ليضمن له عيشا كريما رخصا موصيا اياه بأن يبذل الفليل من الجهد ، وهو لذلك ارسل ابنه شريف الجابر للدراسة بفرنسا ، وشرع منذ حلوله بتونس يلقنه اصول السياسة ويطله على خفاياها دون ان يبيح له الاختلاط بالفئات التي تمارس السياسة لان مفهوم السياسة عند اسماعيل الجابر هو ان نحلها كمهنة ، ولا نمارسها كعمل ثوري يقود الى السجن والموت .

اما رشيد الساحلي فهو الشرطي الحازم الذي يكرس كل مواهبه لخدمة الاستعمار ، ورصد حركة المناضلين ، والمشاركة في تعذيبهم في سجون ( المحمدية ) و ( تبرسق ) ، وابتزاز اموال الاهالي الذين يلجأون اليه للتوسط في معرفة اخبار ابنائهم ومصائرهم .

وفي خضم هذه الموسوعية الروائية نتعرف الى ابطال الثورة الحقيقيين الذين اعتلوا مشارف الجبال ، وقاموا بتنفيذ اخطر عمليات الفداء في الفجاج والطرق ، من امثال البشير الغوري ، وحمادي رايح ومحسن الازهاري ، ومسعود الفالح ، والمنجي ، ومذيوب ، كما ان الثورة المسلحة نفسها لم تسلم هي الاخرى من المنحرفين امثال ميلود الرداوي الذي بدأ نائرا وتحول الى قاطع طرق ، ركب الثورة ليصبح الحاكم بامر في الجبال ، بروح من يشاء ويقتل من يشاء دونما وازع ولفايك خسيصة . وتنخل الرواية اسماء الزعماء والقادة الذين قاموا بثورات في الحركة الوطنية ، وقادوا الثورة المسلحة ، ولكن في حدود الادوار التي قاموا بها ، وادوها مخلصا للوطن .

وعلى عكس رواية ( ارجوان ) فان ( نوافذ الزمن ) التي كتبت لتصور احداث بتزرت ، ومعركة اجلاء الفرنسيين عنها في سنة 1962 فانه لا مجال في هذه الرواية للشخصية الهامشية لان طبيعة الحركة كانت قد اتخذت خطا متصاعدا ، وليس ثمة من كان يستطيع التشكيك في جدواها ، ما دامت الدولة نفسها هي التي اعلنت هذه الحرب ، وهي التي عبات لها الجيش النظامي وافراد الشعب ، كما لا توجد في هذه الرواية شخصية محورية واحدة او مجموعة شخصيات محورية ، ان البطولة فيها جماعية لا يتميز فيها الطبيب عن العامل ، ولا الاستاذ عن البحار ولا الموظف عن الضابط . وميزة هذه الرواية من الناحية السياسية انها الوحيدة التي ادرت بطريقتها الخاصة لهذه الحرب ، وصورت لنا الاحداث البارزة لمعركة هي من اهم المعارك الوطنية التي خاضها الشعب ، ودفع فيها الاف الضحايا وذلك من خلال الوثائق والاخبار والمعايشة اليومية ، كما انها تتميز بما اشرت اليه من تقنية روائية فذة اذ يروي هذه الحرب مجموعة من الشخصيات التي عاشت المعركة ( عادل ، الطاهر ، النجاني ، بلقاسم عمار ، كمال ، نورالدين العلم علي ، الازهر ، ياسمين ، ليلى ، عزيزة ) ولكنهم لا يكررون نفس الاحداث ، ولا يكررون انفسهم ومن مجموعة اقوالهم تتألف احداث الرواية وصورة المعركة ثم في فصلها الثاني يعود بنا المؤلف الى المرحلة التي سبقت الاعداد لهذه المعركة . وكيف كانت حياة هؤلاء الاباطال هادئة سعيدة قبل ان تعلن الحرب وقبل ان يحرق السلام .

وبالاضافة الى ما يمتاز به اسلوب المؤلف من مرح ، ودعابة ، ودقة في التعبير وقدرته على الحك والسيف والخيال الاقتصادي ، والشاعرية في اللغة فان الكاتب لا يهمل العواطف ، والشاعر وقصص الحب التي لا تخلو منها علاقة انسانية ، وقد سردنا في اطار عفوي جنبه الوقوع في الافتعال ، والجنوح الى الميلودرامية العبية . انها قصص العيبة والمرارة ، وقصص السعادة والوفاء التي انعكس عليها واقع الحياة السياسية فثلج العواطف ، وحكم على بعضها بالفضل ، واعطى بعضها الاخر القدرة على التجاوز والفوز بالرغبة .

لذا كان مال حب جلال للفائزة الفشل المنتظر ، نظرا لما يفرق بينه وبين ابنة عمه من تفاوت اجتماعي ، ونظرا لاختلاف الطبائع بين

فائزة الطائفة المتهمة العواطف ، والتي كانت تبحث عن المجد والمال وعن سيارة شريف الجابر ( السبور ) التي اخطفها من الشارع ذات يوم . . وبين جلال الكاف بالجمال والاحلام ، الطوح الى وطن متحرر من الاستعمار ، والباحث عن غد سعيد يجد فيه موطنه قدم بعد ان فقد الارض التي سلبه اياها عمه حامد القويدي عنوة وصلفا ، والام التي اخطفها الموت ، والوالد الذي مات كهدا وحسرة .

لقد استطاع الكاتب ان يعالج المصامين السياسية التي طرحها رواياته من خلال ابطال يؤمنون بالثقافة وبالفكر ويرون فيها اسلحة ضرورية وحاسمة في اية معركة يطلب فيها النصر ، باعتبار ان البطل المثقف هو الذي بإمكانه ان يتخذ الجدل وسيلته للاقتناع والتحرير وبت الوعي . فيمن حوله ، مثلما فعل جلال الذي جنس الكثيرين من اقربائه بفضل منطق الواعي ، وايمانه العميق بجذوى المعركة النضالية التي يخوضها .

وشخصية جلال في هذا الصدد تماثل الى حد ما شخصية ( عبدالله ) المحورية التي تقوم عليها رواية ( التوت المر ) للعروسي الطوي ، فبالله بما له من ثقافة ووعي ، ادرك هو الاخر بان قريتهم على وشك الخراب من جراء ادمان الكثيرين على تعاطي المخدرات . لذلك اتخذ المنطق وسيلة لتجنيد ابناء القرية وحملهم على تخريب المزارع ، وتنظيم حملات ضد حشيشة الكوروري التي كان يبيع تدخينها عمدا لشل قوى التفكير في المجتمع ، وتخدير عزائمه والهائه عن حالته الزرية ، وحالة وطنه الذي هو بحاجة الى رجال اصحاء اشهداء لينهضوا بالقاومة .

اسس عبدالله جمعية انقاذ الشباب التي تالفت في باديء الامر من كل من ابراهيم والمختار ومحمود ، ثم اصبح ننضوي تحت لوائها اكثر من خمسة وعشرين شابا مجتهدين لتحرير آبائهم من اسس الكوروري الذي نخر صدورهم واستعبد نفوسهم ، وشن هؤلاء حملة شعواء على الاجنة والفايات مدمرين هذه الاشجار مجتئين اصولها مما دفع بالقرية الى العجيرة وادخل فيها الرعب والفزع .

وعبثا حاولت السلطات الاستعمارية القاء القبض عليهم ولكن دون جدوى نظرا لاحكام التنظيم الذي يجمعهم ولايمانهم بجذوى ما يقدمون عليه ، الى درجة ان ابراهيم اشعل النار في دكان والده الذي كان يبيع التبغ ، وذلك عندما رأى اعوان السلطة الاستعمارية قد زاروه نهارا متساطين عن هذا الذي يحدث بالقرية طالبين اليه مساعدتهم على الوصول الى معرفة الفاعلين .

« .. واندس (ابراهيم) في ظلام السقيفة ثم خرج الى الشارع في طريقه الى المقهى . وقيل ان يتوغل في طريقه فوجيء بسيارة قادمة الى القرية ، لم تقف بساحة السوق ، ولم تعرج على منزل شيخ التراب بل اقتربت السيارة منه . ثم وقفت امام دكان والده .

ونزل منها جنديان ، ودخلا الدكان ، فاستراب من قدميهما في هذا الوقت وتوجههما الى حانوت والده ، فعاد ادراجه الى المنزل . ووقف في ظلام السقيفة يفكر . ولم يلبث ان رأى والده يدخل الدار من الباب الواصل بين الحوش والحانوت يتبعه هذا الزائران ! ودخل ثلاثتهم « المخزن » واطبقوا وراهم الباب ، فازداد ابراهيم شكاً وربية من هذه الزيارة ومن هذه الخلوقة بين والده ورجال الجندرمة .

« لماذا اتى هؤلاء الكلاب ؟ هل لزيارتهم صلة بما حدث في القرية منذ اسبوع ؟ يجب ان اعرف ذلك .. » (ص. 8 - التوت المر ) .

هذه الرواية وان لم تتناول الاحداث المسلحة ، ولم تتعرض للمقاومة المباشرة كما هو الحال في روايتي بن جنات فانها تقدم لنا صورة من الكفاح السري او الكفاح السلبي الذي لا يواجه الاستعمار وجها لوجه ولكنه يواجهه الاسلوب الماكر للاستعمار ، ويواجهه طرقه السلبية في هدم عناصر الشخصية في الشعب ، وتحطيم العنويات الصلبة بقصد اخضاعها لسيطرته المطلقة .

يصح ان نعتبر ( التوت المر ) رواية المقاومة السلبية للطرق السلبية ، فينبغ الاسلوب الذي اراد الاستعمار استخدامه لتهديم القرية المعابة بروح الثورة والجلاد ، انطلق الجيل الجديد من ابائها يرفعون الوصمة عن الابهاء ، ويحررونهم من ربكة المخدر الذي اباح الاستعمار تناوله لتحقيق بعض اغراضه الخاصة . وذلك عندما اعجزه الجهد عن مواجهة العنف بالعنف واستعمال السلاح والقهر وسيلة لاختصاص شوكة متساكني هذه القرية التي كانت مدار الرواية .

وضمن كتابات العروسي المطوي المتعددة عن الحركة الوطنية ، في مرحلة الخمسينات التي كانت اوج الحركة ، وبداية العنف المسلح نراه يقدم لنا في روايته ( حليلة ) نموذجاً للبطولات النسائية تلك المرأة التي ابنت الا ان تشد ازر زوجها عبد الحميد عندما اكتشفت بمحض الصدفة ذات يوم انتماءه للثورة ، وقيامه بالتنسيق بين فصائل المجاهدين ، وامتدادهم بالسلاح والفرصات . وایمانا منها بهذا الدور الذي كان يقوم به الزوج ، نرى حليلة تنخرط في المقاومة ، وتتصدر المظاهرات الوطنية ، وتنال تضييقها من الشرف والاذى . . ( شاركت حليلة في المظاهرة الكبرى التي انتظمت بحي « بساب الخفراء » وتصدت للمتظاهرين اتقوات الفرنسية بسلاحها الفتاك وقواها الجهنمية ، ورغم سقوط الشهداء والضحايا فقد استطاع المتظاهرون الصمود والثبات ، واعدوا التظاهر المرار العديدة .

اما حليلة فقد انهال عليها احد الجنود القساة ضرباً بمؤخرة بندقيته فاصابها بعدة ضربات في جنبها حتى سقطت على الارض ، فركلها برجله ركلة فظيعة واغمر عليها .

وعندما عادت الى المنزل انتابها ألم شديد واحست ببداية اجهاض . . ( حليلة ص ٩٩ ) .

وعيب هذه الرواية هو انها رواية تقريرية ، تنقل لنا الاحداث بأسلوب يفقد هذه المقاومة كل جدوى ، لانها مقاومة لا تنطلق من وعي ولا تنبثق عن اقتناع ، وكأنما ثورة عبد الحميد انما هي مجرد الثورة ، وثورة حليلة انما هي مجرد الانثار لوالدها الذي قتل على يد احد معمرى الارض عندما هم ذات مرة بقطف ورد قرغبت فيها زوجته الحامل . وهكذا نرى الحدث في رواية ( حليلة ) حدثاً ساذجاً يختلف كل الاختلاف عن المضمون الهادف والتميز لرواية ( التوت المر ) حتى ان هذه الرواية تنتهي نهاية غائمة منعجلة وغير مقنعة ، اذ يحكم على عبد الحميد بعشرين سنة اشقالاتاً شاقة ، وفجأة يهل الامل لعلول يوم غرة جوان ١٩٥٥ م بعد عودة زعماء البلاد وافتتاح ابواب السجن .

ومن مظاهر النضال السياسي الاندفاعي غير الواعي ما نجده في رواية ( عندما ينهال المطر ) التي تلخص لنا سيرة تلميذ فسي المهدي العلوي ( عباس ) يعيش في كفالة خاله ( سليمان ) الذي كان يشغل خطة باش شاوليش في الادارة الاستعمارية .

يتعلق ( عباس ) بجارتهم حسنة ، ويتبادلوا باياها المواطنين واهواه الجسد . ثم تخطب حسنة الى رجل يكبرها بسنوات عديدة ، وفي صباح اليوم الاول من زواجها الى بيت الزوجية تعود حسنة الى منزلهم ، لان زوجها اكتشف انها كانت لها علاقة سابقة بغيره . وتظل حادثة حسنة تنخر ضمير عباس فينصرف الى الانخراط في صفوف الشعب الطلابية السرية المنتظمة بالمعهد ، يشارك في الاعداد للمظاهرات مع ثلثة من رفاقه ( عباس ، صالح ، خضر ، محمود ) الى ان تسنى له اصلاح غلطته مع حسنة واقناع خاله بالتزوج منها . وفي ليلة عرسهما يذهب عباس للمشاركة في المظاهرة الكبرى المنتظرة .

( وفي تلك اللحظة وصلهما الصوت عالياً من الخارج ، باكياً منتحباً :

— خالتي حبيبة ، عمي عباس ، اسرعاً .. تعالياً ..

وقفز الاثنان مسرعين الى وسط الدار ليجدوا خالداً قرب عرصة

باب السقيفة الداخلي ، وحوله جمع من النساء اللاتي كن ياكلن . كان خالد في حالة مرعبة عيناه زائفتان ، يملأها الدمع ، وفسمات وجهه يعصرها الالم والحسرة ، الشيء الذي زاد في دمايته ، كان فمه في تكشيرة لا تنتهي تمطط معها جانبا انفه فصار افطس تماماً : — ماذا هناك يا خالد .. ماذا جرى ؟

— يا عمي سليمان ، عباس اخذه الجيش ، ضربه برصاصة في ذراعه ، ثم اخذوه ، ركلوه ، ضربه باعقاب البنادق ، الدم يصب من كل جانب من بدنه .. يا اخي عباس ..

وولولت النسوة باكيات ، طالبات اللطف من الله لهذا العريس الشاب صاحب العروس ذات الكعب المشثومة .. ص ١١٥ .

وعندما يخرج عباس من السجن ، يكون خاله قد توفي ، ويكون ابنه الصغير قد ورث اسم الخال سليمان ، على غير علم بما حدث للعائلة من ولادة او موت .

ومن خلال الاحداث ترى مضمون الرواية ينحصر في تقديم شخصية ( عباس ) النزق المغامر المعجب بنفسه ، واطفاء صورة عن الحياة الاجتماعية في الاحياء الشعبية وما يسودها من الفوضى والتلاؤم ومن التناحر والولام معا . ومن البديهي ان يتعرض المؤلف اثناء تصويره لفترة الخمسينات الى ما كان يعيشه الشعب من غليان دائم ، وتحفز للمقاومة .

وقد جسم ذلك من خلال شخصية عباس ، وما يجري في المهدي العلوي وبقية المعاهد الثانوية الاخرى من تمرد وثورة على المستعمر ، ولكنها ثورة تخلو من الوعي ثورة اندفاعية في حدود ما يشعر به التلميذ من رفض للواقع دون ان ينكر بما وراء ذلك ، ودون ان يكون لهذه الثورة مضموناً سياسياً ، وموقفاً محدداً من الحاضر والمستقبل .

وفي هذا النسق تختلف شخصية عباس التلميذ الطائش الذي كان همه الرقص في مختلف شوارع العاصمة ليحس بانه مطارد من قبل الشرطة والجيش الفرنسي عن شخصية ( جلال ) التلميذ ، ايضا والذي يلتقي مع الاسلوب الذي يمارسه عباس نفسه ، ولكنه يتميز عنه بوعي سياسي العميق ، لا يباد ما كان يقوم به من مقاومة .

ولعل ذلك هو الذي يجعلنا نلمس ضعف الشخصية في (عباس) وانهاره النفسي بمجرد ان يدخل السجن وانحصار تفكيره في حسنة وما جرى على خاله من الوبال ، بينما نرى السجن يضيق بجلال في رواية ( ارجوان ) ، ويتحول في نظره الى قلعة من الصمود ويصهر شخصيته بتجربة جديدة ، ويشحنه بزيد النخوة والاحساس بوجود المضي قدماً لادراك الفرض الذي نذر له شبابه وروحه : « .. لا لن امضي على اي سطر مما تكتبونه .. اقتلونني ، اموت ؟ ساصرخ واتاوه ، سيفمى علي . ولكنني لن ابكي ابداً ( ارجوان ص ١٧٤ ) .

ولو امكن استعراض جل ما كتب من روايات تونسية لحد الان لبدا لنا ان معظمها اهتم بتصوير الواقع السياسي لمرحلة الخمسينات على الخصوص . والسبب هو ان جل مؤلفي هذه الروايات كانوا قد عاشوا هذه المرحلة بعمق ، وكانوا شهود عيان ان لم يكونوا مشاركين حقيقيين في دعم تلك الاحداث . ومن لم يشارك منهم بنفسه فهو ولا شك قد شاهدتها او سمع عنها الكثير .

اضافة الى ان الخمسينات تعتبر من اهم المراحل والفتترات التاريخية التي عاشها النضال في تونس اذ كانت السنوات التي حسمت بين عهدين ، عهد الاستعمار وعهد التحرر . وكانت سنوات الحرب المسلحة وسنوات النضال السياسي المرير .

ولا غرو حينئذ ان تتعدد الكتابات عن المضمون السياسي لهذه المرحلة ، وان يقع ابرازه والتأكيد عليه ، وتصويره تصويراً يليق بالنخوة ، ويرضي كبرياء الوطن .

بهم يعاجلونه بكل سرعة ، دون أن يعلم ما إذا كان الناس قد سمعوه أم لا وما إذا كانت فكرته قد بلغت الأذان أم لا ... ؟

وأفاق من الإغفاءة العميقة التي أخذته على أثر الضربة على صوت عين ماء باردة تشرشر في أذنيه ، وشعر بيقظة تسري في أعصابه وجسمه ، وتعيده إلى نفسه . وعندما رفع رأسه ليعرف أين هو ، قابله صف من أشجار الطرفاء ، وعينا شرطي تراقبانه من الخلف ، وتنتظر أن يفيق ، فعرف أنهم قبضوا عليه ، وأنه الآن وراء الأسلاك الشائكة .

عند ذلك اغمض عينيه مرة أخرى . ودس رأسه تحت الماء يكمد الجراح والكدمات ويشعر أن الأرض تدور .. وتدور .. وتدور .. « ( يوم من أيام زمرا ) ( ص ١٧٢ ) .

ونتيجة للشعور بهذا الظلم الفادح الذي لقيه العامل الكادح في المناجم ، والفلاح الذي سلبت أرضه ، نرى الروائيين يظهرين اهتماما خاصا بمشكلة تحرير الأرض ، واعادتها إلى أصحابها والمساهمة في أحيائها ، ففي رواية ( المنرج ) لمصطفى الفارسي جماعة من المثقفين ( عادل الهادي ، عبدالعزيز ، عبدالسلام ، سلوى ) يلح عليهم التفكير في القيام بمشروع يكفل مساهمتهم في أحياء ما أهمل أحيائه من التربة والأرض ، ويضمن اشتراكهم في أداء ( الرسالة ) التي يتوجب على كل مثقف أدائها ، ويتمثل هذا المشروع الذي كان بطله (عادل) الشخصية المحورية للرواية في ( إنتاج الماء العذب من الماء المالح ) ، وفي إنقاذ أراضي الجنوب المتطشة للماء ، لذا نراه يجند كل مواهبه لوضع الدراسات اللازمة ، والشروع في التنقيب عن الماء ، ويخترق بسيارته المناطق الصحراوية الجافة شأن « المصلحين الكادحين » .

وأصبحت فرق التنقيب عن الماء التي تعمل تحت إشرافه ، مرابطة بقرية « دويرات » على رأس جبل معجوف تكسو سفوحه الصخور ، ويتصاعد العفر كدخان البخور كلما مرت سيارة طائفة بأوعاره ومنعرجاته .

ومن « دويرات » انتقل عادل إلى « شئني » (فغمر ايسن) ثم إلى « سيدي مصباح » وفضى ليلته بمدينة ، وقد أنهكه السفر والتعب فنام نوما هادئا عميقا ، كنوم الأطفال ، كنوم عمال المناجم .. كنوم جميع الكادحين .. « ( المنرج ص ١٢٨ ) .

لقد أعجب (عادل) أثناء تطوافه بالوحدات الجنوبية بقدرته القوم على الصبر والانتظار واخضاعهم كل شيء للزمن : « ففي هذه المناطق كل شيء يستمد فونه من ذاته نفسها ، ومن طبيعة المناخ والبشر . الماء هنا كمية من الزمن » . ( ص ١٢٣ ) .

وهو لهذا السبب يرى أن حياة المجتمع ، واستمراره في مقاومة الزمن والقلب عليه وقهره ، تكمن في قدرة إنائه على افتناع أنفسهم بهجرة المدن إلى الأرياف القاحلة ، والعمل على أحياء ما لم يحيه المستعمر منها .

ورغم أن الرواية تقدم لنا صورة للنموذج المثقف في بلد يواجه مرحلة ما بعد الاستقلال ، وما تخرج به من متطلبات ملحة ، فإننا نرى (عادل) شخصية رومنطقية تغلب عليها الشعاعية وإحلام اليقظة والإعجاب بالمشايخ الكبرى التي قد تستعصي في بعض حالاتها عن الحل ، فهو مشتت المشاعر بين حب سلوى .. وحب الأرض .. بين الاستقرار ومواجهة الصحراء في الجنوب ، وبين الترحال الدائب والشوق ، إلى الطبيعة ، وغناء البادية في الشمال .. بين العيش في الماء .. والحلم بالماء .

« وتبرز من فمه كلمة « ماء » بعد لاي شديد .. وبمضي وقت ثم يشمر بقطرات من الماء ، تبلل شفتيه ، ثم تصل إلى حلقه الملتهب في لهجة ، ولكن الألم يعاوده من جديد ، فيئن ويخيل إليه أن أناسه الملاحة تخفف من حدة ألمه وأنه يعلم وعيناه مفتوحتان . كل حواسه

بل أن الرواية التونسية اهتمت في المرحلة اللاحقة بقضايا تعتبر من أساسيات مرحلة بناء الكيان ، وتحقيق الهوية ، وهي قضايا الكفاف الاجتماعي وصهر الطبقات ، وأحياء الأرض ، والاهتمام بالفئات الضعيفة التي عاشت مظلمة تاريخية مريرة طيلة الوجود الاستعماري والعهود الإقطاعية المستبنة .

وإذا كانت الدعوة إلى هذه الآراء والأصداغ بهما فسد اتسم بالاحتشام والتواضع وتصوير الصراع على أنه صراع عرضي وليس صراعا حتميا ، ومطالبة بالحق والعدل وليس أخذا لهما بالشدّة اللازمة ، فإن الرواية مع ذلك لم تخل من نزعة جادة لمساندة رغبات وتطلعات الطبقات الاجتماعية المغبونة كعمال المناجم ، والفلاحين ، وإبناء الريف ، والنكرات المعصين .

ورغم أن القصة القصيرة بدت في السنوات المتأخرة أكثر فصاحا عن هذا المضمون السياسي ، وأكثر وعيا لهذه المشكلات التي نجمت في مرحلة ما بعد الاستقلال الوطني ، فإن الرواية لا مست إلى حد ما منذ بدايتها شكل هذه القضايا وقفزت بها إلى السطح باعتبارها إحدى العضلات المزمنة التي أدت إلى كل الثورات الوطنية منذ الاحتلال ، وقبل الاحتلال .

ويتجلى ذلك في الأسباب التي دفعت ( حليلة ) بطله رواية العروسي الطوي ، إلى الانخراط في الثورة لأن والدها منع من كطف وردة من ضيعة المعمر الفرنسي المقنطمة من تراب الوطن ، وتراب القرية التي يعيشون عليها ، وحين تجرأ ووضع كفه على الوردة ليقتطفها خلصة جوبه بالرصاص ، والموت ونهمة السرقة ، أنه العدوان الزر ، وظلم المستعمر الذي لم تكن تهمة الهيمنة السياسية ، بقدر ما كان يهدف من وراء هذه الهيمنة إلى الاستحواذ على الأرض واستغلال طاقتها على العطاء ، والائراء عليها .

وعلى هذا النحو تبدو صورة ( الدينجق ) البطل العمالي الذي صور بشير خريف في روايته ( الدقلة في عراجينها ) نضاله المستميت في سبيل الدفاع عن حقوق عمال المناجم المنلوي بالجنوب التونسي . ومجاربة الشركة الاستعمارية التي كانت تستمد سطوتها من الثروة الوطنية التي كانت تبترها ، ومن سواعد العمال الوطنيين الذين كانوا يعاملون معاملة قاسية ، ويسامون العذاب الوانا .

وعندما شعر هؤلاء العمال بوجوب الوفاء صفا واحدا ، والتساند للمطالبة بحقوقهم المشروعة وجدوا الرصاص بانتظارهم ، وبنادق جنود الاحتلال في حماية الشركات الاستعمارية .

ويتكرر نفس المشهد في رواية ( يوم من أيام زمرا ) لمحمد صالح الجابري التي تعالج هي الأخرى مآسي الصراع الدامي بين شركة مناجم الفوسفات والجنوب التونسي وبين العمال الذين كانوا عرضة للاضطهاد والقهر والاستغلال وتروي قصة الشاب إبراهيم الذي أعيتته الحيلة في البحث عن عمل بمختلف أنحاء البلاد فيلتحق في النهاية بعمه الذي يعمل بمنجم بلدة ( الرديف ) عله يحصل على عمل مماثل إلى جانبه وفي أثناء فترة الانتظار يشاهد أحد الإضرابات التي يقوم بها العمال ، ويجد نفسه في خضم الحشود يصفى للخطباء والزعماء فيتلجج الصوت المكبوت في داخله ، ويندفع نحو منصة الخطابة ، ويسك المصدق بدوره ليقول كلمة كان يبحث لها عن مثل هذه المناسبة الفريدة .

« امسك بالبوقة وتكلم .. تكلم كلمة واحدة لا غير .. فاه بها قبل أن تعاجله ضربة قوية من الخلف تركته يتدحرج إلى الأرض صامنا ، فبال بكل شجاعة ورباطة جأش « اضربوا » .

وكان يريد أن يكمل الجملة الأولى من الخطاب « ولن نتوتوا جوعا » وهي جملة حفظها عن ظهر قلب ، ورعاها من كتاب فراه ذات مرة أثناء إقامته ببلدة « القصرين » . ورأى أن الموقف مناسب لذلك . وإذا

الآن تشعر وتعمل .. وترسم أمام عيني « عادل » مشاهد متلاحقة تجري كالسحب في السماء » ( ص ١٦٨ ) .

وفي هذا الصدد تبدو رواية ( .. ونصبي من الأفق ) لعبدالقادر ابن الشيخ أكثر واقعية وتصويرا لمشاكل الأرض والحياء والفلاحة ، فهي ترسم لنا صورة قرية زغوان عند مصب المياه .. وقد غاضت عين القرية الوحيدة ، وتعرضت الأرض لخطر العطش وبيعت الضياع بالثمن منهاودة ، بعد أن تكالب على امتلاكها كبار الفلاحين . ولم يسبق للقرية إلا أن تدفع بشبابها إلى الهجرة نحو المدينة .

وهكذا نرى ( سالم ) بطل الرواية يفارق القرية التي لم يفارقها في حياته ، ويفارق والده وامه وخطيبته خدوجة التي طالما حلم بالعيش معها في ضيعة ودار .. ميمما نحو العاصمة للبحث عن العمل في فندق سياحي .

نصيب الماء .. وانبث الهلع في القرية ، فقد الراعي بائع عاديات للسواح ، ورحل الشباب لخدمة السواح .. أنها الكارثة والموت المحتم : « سيباح سالم القرية . العمل قدامه ، وخلفه اجره قارة وحبزة مدينة شهية وزواج سيتحقق ، ولكن الأرض بين رجليه تحت رجليه وان لم تكن ملك يديه . يحسها احبها ، يرسم عليها حلما يتكرر في اليوم الواحد ، في وحدة الانس ، على الطاولة في المقهى في احلام الليل والقيولة .

الضيعة الآن مربعة ، رسمت يده عليها منزلا بجواره بئر ، بجانب البئر جابية . ثم سطرت ساقية رئيسية تستمد منها الفروع ماء زلالا يسيل دون انقطاع في طريقه إلى الاحواض ، وقد كثرت وتعددت خضفها .

كانت الاصابع تمشي فوق التراب هادئة كريمة لا تعرف للاحسان حدا . وفجأة اقتربت رجليه من التصميم الدسم فداست جزوا منه ، وامتدت إلى العين ، إلى ساحة المعبد يزفرد فوقها صمت السماء » ( ونصبي من الأفق ص ٩١ ) .

وفي المدينة التي هاجر إليها سالم لم يجد هناك غير الوعود ، وغير الكلام الرقيق .. وغير جمع من انحراس يقفون على ابوابها يجلبون اسماع الناس بالاسئلة عن الاسباب التي دعتهم إلى الهجره وعسا اذا كانوا يحملون دعوة من ابرار المدينة تخول لهم زيارتها . ويتصل بعد الاذن له بالدخول بعثمان ابن فريتهم الذي ارسله ووعده بالتوسط له في العمل في احد الفنادق السياحية ، ولكنه يفشل في الحصول عليه لأنه لا يملك ثمن البدلة التي يجبان يظهر بها امام مدير الفندق . ثم يطرق باب اعمعاره من ابناء القرية ايضا املا في الاقتراض منه ، لكن الآخر « اقسام له واخرج محفظة نقوده وكرر القسم تلو القسم فعظمت مساحة الفراغ ، وجهع ما لديه من القطع النحاسية ، والقي بها على الطاولة فلم ترن اذنيه . كانت عيناه تعبران فضاء جهنمي المرارة ورجلاه تطلان تربة يابسة تصرخ ضحيا » ( ص ١٥٨ ) .

وعلى مقعد خشبي بحديقة عمومية . استلقى سالم منطويا داخل قشايته بعد ان يش من كل شيء ، واذا به وجها لوجه امام فتاة من قريتهم ( محبوبة ) اتخذت لها وضعا منحرفا تمارس الرذيلة على قارعة الطريق : « لم يكن ينتظر ابدا ، لم يتسن له الفرار .. لم تكن تنتظر ابدا لم يتسن لها الفرار .. لكانهما في قصي اللقاء ، والليل حولهما جميل مخيف » .

واكثر من ذلك يرى محبوبة تطره بنفس الاسئلة التي اطره بها الاخرون عن احوال القرية والمطر » .

ومثلما اكس المؤلف في خاتمة روايته بانه « يحلم الواقع » فإنه في الحقيقة كذلك .. تارجح بين الحلم والواقع .. كل ما فسي الرواية يشبه الكابوس ولكنه كابوس من الحلم في الواقع المرر الذي واجه ابناء القرية على اثر من اصابه المدن بعد الاستقلال من الازدهار . فهي التي جنت ثمرة الكفاح الوطني ، واستأثرت بالواقع السياسي على حساب الارياف وابداء الارياف . وتتبطن الرواية نقدا هاسما لاهمال القرى والفلاحة ، والاهتمام بالسباحة كعمل اقتصادي يرجى منه النفع الشامل .

بعد بطالته القاسية يتحول إلى مجرم يحترف الشر مع مجموعة اصحابه ممن تعرف عليهم أثناء تروده على بلدة ( القلعة ) بالساحل ، حيث صهره محمد الاخضر ، معلمه بالمرحلة الابتدائية ، ثم اتفقوا ياهم على السرقة وترويع التجار ، وبعد توزيع الادوار كان نصيب سمير تاجرا من تجار مطر ، فذهب اليه وادعى انه عين مديرا لمدرستها الابتدائية فتواه الرجل واكرم ضيافته . وثناء هذه الإقامة القصيرة تعرف ( سمير ) على ابنته جميلة وافتنى بكارتها ، وتوصل إلى خلع غرفته الخاصة والاستيلاء على ما فيها من اموال ، والعودة إلى تونس العاصمة حيث وجد المجموعة التي ينتمي إليها وقد اصيحت مطاردة من قبل الشرطة .

وبما أن القصد الاساسي للمؤلف كان يهمل بالدرجة الأولى في الكشف عن سلبيات هذه المرحلة وتقييم الوضع السياسي لفترة من اهم الفترات في حياة المجتمع التونسي ، فقد تعمد أن يعالج هذه التجربة من خلال شخصيات منحرفة ، شاذة ، مبتورة التكوين الثقافي والسياسي ، وفي اطار رواية ضعيفة البناء تطلب عليها السداجة والسردية ، مما جعلها تبدو اقرب إلى التذكرات منها إلى البناء الروائي .

وكانما تعمد الكاتب بذلك أن يثار لنفسه من النعاصد ، ويشفي غيلا خاصا بالانتقام والاساءة إلى بعض النماذج الاجتماعية التي عنها بروايته . أن الواقع يفرض ان تشير ايضا إلى عدة محاولات روائية أخرى ( كبودودة مات ) لرشاد الحمزاوي ، ( في بيت العنكبوت ) لمحمد الهادي بن صالح ، ( الازبون لا يموت ) لعبدالقادر بالحاج نصر و ( البحر ينشر الواحه ) للجابري عالجت بعض المضمين السياسية عن نضال الفئات وطموح المجتمع إلى تحقيق مثل وغايات ، ولكنها عالجتها احيانا بصورة عرضية ، باستثناء رواية ( بودودة مات ) التي صورت كمثيلاتها مرحلة الخمسينات ولهذه السبب لم اشأ ان انناول الزوايا المحدودة لهذه الروايات التي كتبت اساسا لتصوير العواطف الانسانية والطموح البشري بصورة عامة ، وطموح الفرد التونسي بصفة مخصصة .

واجمالا يتضح من هذا العرض المقتضب الذي حاولت ان اقدم من خلاله ما اعتبرته مضمونا سياسيا ومعالجة للواقع الاجتماعي أن مشاكل المجتمع التونسي قد لا تختلف اختلافا بينا عن مشاكل المجتمع العربي عامة والمجتمع الانساني بصفة اشهل ، باستثناء تلك الميزات المحلية التي ترتبط بالواصفات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لكل مجتمع وتفرده بتلك السمات الخاصة جدا والتي هي في الحقيقة جوهر طرافته وابداعه .

تونس